

تاريخ ابن خلدون

المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السطان الأكبر

ملحق للجزء الأول

يشتمل على ما علق به على غوامض أبحاثه

كاتب العصر الأكبر

الشيخ نقيب الأشراف

١٣٥٥ هـ حقوق الطبع محفوظة للناشر ١٩٣٦ م

محمد المرهري الحبابي

صاحب المكتبة التجارية الكبرى بفاس وتطوان

وفروعها بالاقطار المغربية

الطبعة الخامسة
شارع الخرافة رقم ٣٥ تيفون ٥١٥٢٢

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مقدمة

ابن خلدون أمة وحده

لم نعلم أحداً من العلماء والفلاسفة قبل ابن خلدون أفرد بالتأليف علم طبيعة العمران وما يستقوى اليوم بعلم الاجتماع ، برغم أن هذا العلم لم يكن من الأسرار الخفية ولا من المباحث التي لا تجول فيها أفكار الحكماء . وقد ثبت أن الفلاسفة قبل ابن خلدون لحظوا هذا العلم وأشاروا إليه في تصاعيف مباحثهم ، ولكنهم لم يبالغوا فيه شيئاً من الإحاطة التي بلغها ابن خلدون ، ولا استقصوا فيه ذلك الاستقصاء الذي جعله في هذا الموضوع نسيج وحده ، حتى أُلِيَ إليه فيه بمقابلد الرئاسة . فهو واضع علم الاجتماع بالاحصاء ، وهو الذي لم يدع منه غملاً غير معلم ، ولا وثيقاً غير منمنم .

قال البارون المستشرق « كارادوفو Carra de Vaux » صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » في الجزء الأول من تاليفه هذا : أُنجبت افريقة الاسلامية اجتماعياً من الطبقة الأولى في شخص ابن خلدون الذي لم يعرف من قبله عالم أوتي تصوراً عن فلسفة التاريخ أصبح ولا أُجلى من تصوره ، فان أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القضية بتغييرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الأنطوار وتنوع المدييات وعوامل نموها أو تقامها ، كل ذلك كان من المباحث التي خاض فيها إلى أقصى ما يمكن الخوض فيه ، وذلك في مقدمته المشهورة « Prolégomènes » ولم نجد في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر ، المسيح أناساً حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ استخراجه بعد أن كانت أبقالا مستحجبة تعذر فتحها ، فكان ابن خلدون في العقل والادراك من فضيلة « مونتسكيو Montesquien » أو الأبق « مابلى Mably » وهو من دون شك الجدة الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين مثل « تارد Tarde » أو المستشرق « غوبينو Gobineau » اه .

ثم ذكر صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » شيئاً عن حياة ابن خلدون وقال إن الأب « بورغيس Barges » قدح في ابن خلدون وأنكر عليه الثبات على وتيرة واحدة ، وزعم أن قاعدته في السياسة كانت التحول من حزب إلى حزب آخر بحسب ما كانت تقضى عليه به مصلحته الشخصية ، أو اتقاؤه للضرر ، ونسى بورغيس ما كانت عليه أحوال تلك الحقبة المضطربة الذى يجب تمهيد عذر من يلجأ فيها إلى ما لجأ إليه ابن خلدون . على أن بورغيس نفسه يسمى ابن خلدون « بالمؤرخ الفيلسوف » برغم ما زنه به من عدم الثبات .

ثم ذكر كارادوفو كيف ذهب فيلسوفنا المشار إليه سفيراً عن سلطان غرناطة إلى « بطرة » الفاشم سلطان قشتالة في بعض المهات ، وكيف حاول هذا الطاغية إقناعه بالبقاء عنده ولم يحصل من ذلك على طائل ، وذكر مجيئه إلى مصر وولايته للقضاء ثم صحبته لسلطان مصر في خروجه إلى الشام لمحاربة تيمورلنك ، ثم ما جرى بينه وبين تيمورلنك من الأحاديث وكيف أقنعه بالاذن له في الرجوع إلى مصر توفى سنة ٨٠٨ وفق ١٤٠٦ عن اربع وسبعين سنة . وقال : إنه كان رجلاً سرياً بهي الطلعة ، حسن الصورة والشورة ، خبيراً بالسياسة ، عارفاً بأخلاق الملوك .

ثم قال : إن عمل هذا الكاتب العظيم كان عبارة عن تاريخ عام مجموع من كتب كثيرة ملحق بتاريخ نفيس للبربر ترجمه المسيو « دوسلان de Slane » إلى الافرنسية ، وقدّم عليه مقدمة تضمنت فلسفته السياسية . وهذه المقدمة هي في حد ذاتها انسيكلو بيداية شاملة ، تبحث عن جميع المسائل من جهتها الفلسفية ، والتاريخ نفسه محدود فيها من جملة فروع الفلسفة .

قال ابن خلدون « إذا نظرنا إلى التاريخ من جهة شكله الخارجى وجدنا مهمته تقييد الحوادث التى تتابعت على ممر الأعصار ، وتعاقب الأدوار ، مما كانت الأجيال الماضية شاهدة له ، وإنه لأجل سرد هذه الحوادث تنقحت العبارات ، وتطرز الانشاء بحلى البلاغة ، وبهذا التاريخ زهت مجالس الأدب ، وتداعى اليها الناس من كل حدب ، والتاريخ هو الذى يعلمنا كيف تقلبت الأحوال على جميع الكائنات وهو الذى منه يعرف بناء الممالك ، وكيفية عمارة الأمم لهذه الأرض . كل أمة إلى

المدة المقدره لها من الحياة ، فأما من جهة الأسرار الباطنة لعلم التاريخ ، فأعظم أسرارها هو البحث عن الحوادث إلى درجة اليقين بها ، والتأمل في الأسباب التي أنشأتها وفي كيفية جريانها وتطورها . فالتاريخ بالجملة إنما هو فرع من فروع الفلسفة ، وهو جدير بأن يجعل في عداد العلوم الجليلة التي لها المكانة الأولى .

فأنت ترى أن التاريخ في نظر ابن خلدون هو عبارة عن تمحيص الحوادث والبحث عن أسبابها . وهذان الأمران يستلزمان معرفة أحوال الشعوب والبصر بطبيعة العمران ، وكان ابن خلدون يرى العمران في زمانه قد أجهف به النقصان ، وأكدى كما أرى فيذهب إلى أن المدنيات قد أشرقت شمسها على العالم من مشارق متعددة ولكنه قد غاب الكثير منها وانطوى بدثور العالم ، فهو يقول: إن العلوم التي وصلت إلينا هي أقل من العلوم التي لم تصل إلينا ؛ فأين علوم الفرس ، والكلدانيين ، والبابليين ، والأشوريين ، والأقباط القدماء ، فإنها كلها قد ذهبت . ولم يبق من العلوم التي وصلت إلينا سوى علوم اليونانيين التي انتهت إلينا بسبب اجتهاد الخليفة المأمون في ترجمتها وإنفاقه الأموال الطائلة عليها .

وقد عقب كارادوقو على كلام ابن خلدون هذا بقوله : إن فيه شيئاً من المبالغة لأنه قد وصل إلى المسلمين أشياء لا تنكر أهميتها من معارف الفرس ، والهنود واليهود . ولكنه على كل حال كلام يدل على سعة عطن ابن خلدون من جهة العلم بالمدنية البشرية .

ثم إن ابن خلدون يتكلم عن الاجتماع البشري فيقول : إن أساس الاجتماع الانساني إنما هو ضعف الانسان منفرداً بنفسه ، فانه إذا عاش وحده فلا يكون مليئاً بالقيام كما يلزم له من أجل قوام معيشته ، بل لو عاش وحده لما قدر أن يثبت في وجه حيوان واحد من الوحوش المفترسة . ثم إن الاجتماع يستلزم السلطان الذي هو في الحقيقة عبارة عن وازع يزع اعتداء الناس بعضهم على بعض ، فلا بد فيما بينهم من سلطة متينة كافية لردع اعتداء المعتدين ، فهذا في الأصل هو منشأ السلطان قال : وهذا غير محصور في الآدميين ؛ بل هو يوجد في الحيوانات أيضاً ، فقد تحقق عند بعضها مثل النحل والجراد ، وغيرها ؛ وجود رئاسة عليا ينقاد إليها أفراد ذلك النوع ، ويكون لصاحب

تلك الرئاسة امتياز في الشكل أو بسطة خاصة في الجسم . والفرق بين الانسان والحيوان هو أن الحيوان ينقاد إلى تلك الرئاسة بمجرد غريزة مركزوزة في فطرته ، وأن الانسان ينقاد إلى هذه الرئاسة بناء على تفكير وروية .

وقد أطل ابن خلدون البحث في تأثير الأقاليم بطباع البشر ، وأورد على ذلك الأمثال ، واستخلص منها أن الأقاليم المعتدلة أحسن الأقاليم سكانا ، بخلاف الأقاليم الأولى والثانية والسادس والسابع فإن أهلها يسكنون في بيوت من القصب أو الطين وأكثر طعامهم من الذرة أو الحشائش ، وهم في الغالب عراة الأجسام وإذا اكتسوا فأنما يخصصون على أبدانهم من ورق الأشجار . فأما الأقاليم المتوسطة فأهلها عندهم مزية التعديل في الأمور واتخاذ الأليق من التدابير ، والأليق من مظاهر الحياة . وعندهم العلوم والصناعات والأمر والنهي ، والنظام والملك ، وفيهم ظهر الأنبياء وتأسست الدول والممالك ، وسُنّت القوانين ، ووضعت العلوم ، وتشيدت الأمصار وغُرست المغارس ، وحُرثت المحارث ، وتولدت الصناعات النفيسة ، وترفّفت المعيشة ، وإنما الأمم التي تنسب إلى هذه الأقاليم هي العرب ، والرومان ، والفرس والاسرائيليون ، واليونان ، والهند ، والصين .

وقد أمعن ابن خلدون في البحث عن أسباب اختلاف المشارب والأذواق في البشر ، فهو يتساءل لماذا الزوج مثلا تغاب عليهم الحفة والطرب ؟ وقد بحث عن ذلك من قبله المسعودي صاحب التار يخ المسمى «مروج الذهب» فقال : إن هذا يوجد عند الأمم التي يسهل عليها القوت ، بعكس الأمم التي تضرب في المناطق الباردة التي لا يسهل فيها إيجاد الغذاء . وضرب ابن خلدون مثلا مدينة « فاس » فقال : إنها لكونها محاطة بالملاذ الباردة تجرد الواحد من أهلها سائرا وهو مطرق رأسه في الأرض يظهر للناس أنه حزين ، وذلك من شدة تفكيره في العواقب ، وقد يبلغ فيهم الاحتياط للمستقبل أنهم يخزنون الحنطة اللازمة لهم إلى مدة سنين ، وهم مع ذلك يذهبون كل يوم إلى الأسواق لا يتبايع لوازم معيشتهم !! ثم قال : إن لأنواع الأطعمة تأثيرات متنوعة في طباع البشر ، فمن الأقوام من يعيشون في أرضين دائرة بالخيرات ، وتتوافر لديهم الآلات ، فتمكث عندهم الحبوب والثمار ، بينما غيرهم يقلّ عندهم هذا النوع من

القوت فيكتفون لأجل معيشتهم بلحوم المواشى وألبانها ، وتقلّ عندهم الأخطا . قال : وإن قلّة الأخطا تزيد الناس بسطة في العلم والجسم . فأجساد هؤلاء الشعوب أنعم وأقوى ، وأكثر تناسبا ، وعقولهم أسمى وأسرع استنتاجاً ، وأذهانهم أشد لحظاً وثقوباً .

فالقناعة عند ابن خلدون وشظف العيش هما من أحسن الفضائل التي يكمل بها الانسان . وهذا الفيلسوف غالب عليه الافتتان بسداجة المعيشة ، ورغم أنه كان مترفاً متبحراً في العلوم ، عارفاً بقدر الصناعات ، تراء يحمد دائماً معيشة البداوة ، ويراهم أقرب إلى الطبيعة البشرية ، وهو يقول : إن البداوة أصل ، والحضارة فرع وإن الأمصار إنما عمرت بأهل البادية ، وإن هؤلاء هم أحسن أخلاقاً من أهل المدن لأنهم يحمون أنفسهم بأنفسهم . والحال أن أهل المدن ينغمسون في النعيم ويتركون لولاة المدن مهمة حماية أنفسهم وأموالهم ، فالمدن والحواضر تعيش في ظلال حمايتها وأسوارها ، بينما سكان البوادي يأنفون من السكنى وراء الأسوار ، وتحت خفارة الجنود ، ويرون أنفسهم أكفاء للقيام بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم ، وهم دائماً على حذر شديد لا يعرفون النوم إلا غراراً ، لأنهم أبداً يلقون السمع حتى إذا سمعوا أقل نبأة هبوا مستعدين لمقابلة الخطر الواقع ، وهكذا تصير فيهم هذه العادة طبيعة خامسة .

والذي يظهر من كلام ابن خلدون ، أنه كان نزاعاً إلى المجد ، ميّالاً بطبيعته إلى الاستقلال وشحم الأنف ، وهو يقول : إن الشعوب لا ينبغي أن تكون على العموم سلسلة القيادة ، مسرعة إلى تأدية الضرائب للملوك ، ويقول أيضاً إن القبائل التي ليس لها حظ من المدنية هي أقوم على فتح الفتوحات من غيرها ، ولقد ساق الله تعالى بني إسرائيل إلى الصحراء وأخرهم في بادية التيه أربعين سنة حتى يعتادوا الاستقلال ويتمكنوا من فتح أرض الميعاد . وللدول عند ابن خلدون أعمار كأعمار البشر ، فالدولة عنده تنشأ وتشب ثم تكتمل ثم تدخل في سن الشيخوخة — أي تهرم — ثم تأخذ بالتردى — أي أرذل العمر — وهو يمرض للدولة ١٢٠ سنة من نشأتها إلى انقراضها وهنا قد قصر ابن خلدون كثيراً من آمار الدول . ثم يقول : عند ما تنشأ الدول ينتقل الناس من البوادي إلى الحواضر ، ويأخذون بمعدات أهاليهم الذين يكونون تغلبوا

عليهم . فلما تغلب العرب على فارس ، وكانوا يجهلون ما أخذ الحضارة ومنازعها ، قيل إنهم وجدوا في مخازن كسرى أشياء لم يعرفوها ، ووضعوا الكافور في العجين مكان الملح ، ثم تعلموا دقائق المدينة شيئاً فشيئاً من الفرس ، ولكن هذه الخشونة لا يطول في العادة أمرها ، بل أولئك الذين كانوا من أبناء الصحراء تراهم ينقلبون من الخشونة إلى الترف ، ولا يلبثون أن يتأنقوا في المأكل والمشرب ، والملبس والمفرش، والمركب واتخاذ الآنية النفيسة ، وامتداد البسط الوثيرة ، ولأجل إيجاد هذه الأسباب كلها لم يكن لهم بد من أنواع الصناعة ، وإفنان الفنون وكل ما تعددت أسباب الترف تعددت الصناعات بقدرها .

قال : وإذا أدرك الهرم دولة من الدول بدأت سلطتها المركزية بالضعف ، وأخذ حكام الاطراف بالتمرد عليها . والخروج عن طاعتها . وقال : إن تأسيس الدول سابق لتأسيس الحواضر ، وذلك لأن بناء المدن يستلزم إيجاد الصناعات ، والعملية الذين لا مفرّ لهم من أن يفتنوا إلى ظل نظام ثابت . وهنا يتكلم ابن خلدون بكلام طويل على الصناعة والتجارة ويقول : إن تقدم الصناعة إنما يكون على نسبة استبحار العمران ويقول : إن الصناعات المبنية على الضرورات كالخياطة والحداثة والتجارة الخ تيسر في كل مكان . ولكن الصناعات التي تتعاق بالترف لا توجد إلا في المدن التي قد زخر عمرانها ، ففيها تجد الصاغة والزجاجين والطارين والطباخين وما أشبه ذلك . وفي المدن وحدها توجد الحمامات التي هي من لوازم الترف ورفاهة المعيشة .

قال كارادوفو : إننا لا نقدر أن نتابع ابن خلدون في جميع آرائه وتعميلاته العلمية للقضايا التي تلقف كرة البحث عنها ، ولكنه على كل حال كان النظر إلى فلسفة هذه المبادئ ، ملازماً لتحقيقاته ، وفي الغالب كان على أثر شديد وكانت له نظرات صائبة وكثيراً ما يأتي في مباحثه بالأدلة المقانع والشواهد على آرائه ، وقد يستشهد بالكتب التي يستظهر بها ويسمّيها ويذكر أسماء العلماء الذين يتوكأ على أقوالهم . فمقدمة ابن خلدون تشتمل على مباحث قيمة في السياسة ، والزراعة ، والتجارة ، والنساجة والخياطة ، وفن البناء ، والطب ، والتوليد ، وغيرها ، وكذلك تبحث في الموسيقى

والوراقة ، والعلوم القرآنية ، والعلوم العددية ، والجبر ، والهندسة ، والفلك ، والكيمياء والمنطق ، والنحو ، والبيان ، النخ . فهذا التنقيب الذي تقبّه ابن خلدون عن تاريخ الاختراعات البشرية وأطوارها في جميع مناحي العمران يجعل عبد الرحمن بن خلدون الكاتب الأفرقي الذي عاش في القرن الرابع عشر نداءً لأعظم فلاسفة أوروبا الحديثة انتهى ملخصاً .

ولندكر الآن على وجه الاجمال مَنْ مِنَ الحكماء سبق ابن خلدون إلى هذه المباحث الاجتماعية ، ولو لم يكن بلغ فيها شأوه فنقول :

إن القسم السياسي من فلسفة أفلاطون يمس جانباً من فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، وكذلك يمسها من جهة ثانية القسم القضائي الحافظ للمجتمع الانساني الكافل لانسجامه . وهو يرى أن المدنية العادلة هي « عبارة عن مجموع منتظم مؤلف من عناصر مختلفة » . وفي كتاب أفلاطون عن الحكومة الجمهورية كلام عن بداية الاجتماع البشري يقول فيه : إن المدنية إنما هي وليدة الحاجة ، وهي في الحقيقة استنباط الوسائل اللازمة الكافلة للقيام بها . وإن هذه الوسائل لا تنهياً إلا بتوزيع الأعمال . فتمت اجتماع عدة أشخاص كل واحد منهم قادر أن يقوم بعمل يحتاج إليه الآخرون فهذه هي المدنية ، وكلما اختص الواحد منهم بشيء كان عمله له أكثر تجويداً لما يكون سبق من مرانه له . إذ المدنية ليست مجتمع أشخاص متماثلين متساوين في كل شيء ؛ بل هي بالعكس مجمع أشخاص غير متشابهين ولا سواسية . والوظائف تزداد صعوبة كلما اتسعت رقعة المدنية وازدادت حوائجها . فبجانب الزارع مثلاً يأتي المتخصص بعمل السكك الزراعية ، وبجانب أصحاب المحاصيل تأتي الطبقة القائمة بالأخذ والمطاء في البر والبحر . وهذا إتقان للعمل وإكمال له ، ولكن المبدأ الأصلي واحد . ثم إن هذه المهن تتميز بعضها عن بعض بسمة المجتمع و يصير أصحابها طبقات متفاوتة فطبقة الصناع تشتغل بسد الحاجات المادية ، وطبقة العساكر تشتغل بالدفاع عن المدينة إذا اعتدى عليها جيرانها ، وطبقة الحراس أو الحفظة تهيمن على إجراء القوانين ، فهذه الطبقات الثلاث أي المشتغلون والجند وحفظة القوانين هم أساس كل مدنية .

ويقول أفلاطون : إنه لا يجوز استغلال مدنية لفائدة شخص واحد ؛ وإن المقصد من بناء المدينة ليس ترفيه فرد أو طبقة ، وإنما هو إسماع المدينة بأجمعها . فكل فرد من سكانها عليه واجب يقوم به ، فإذا قام به فهذا هو العدل . ومن رأى أفلاطون أن احتياجات المجتمع المنظم يجب أن ينظر فيها إلى طبيعة الخلق إذ مها كان الثقافة ذا تأثير فان الأصل هو فطرة المخلوق وذلك كحب الكسب عند الصانع ، وعلو الهمة عند الجندي ، والحكمة والروية عند الحاكم .

ولأفلاطون مذهب آخر وهو : إن أقسام هذه الغرائز في البشر هي تحت تأثير البيئات التي يعيشون بها ، فالعلوم الحسابية التي تدرج بعض الناس إلى الفلسفة هي عند بعض الشعوب كالمصريين والفينيقيين وغيرهم زيادة في التحليل لا في العلم (كذا) ولا نرى في هذا الرأي إلا تعسفاً .

و يوصى أفلاطون كثيراً باختيار ذوى الغرائز الممتازة كحب الحقيقة ، وسهولة الفهم ، وتغلب العقل على الهوى ، وشرف النفس ، والاقدام ، وحسن الذكاء الخ . ومن وصاياه تنظيم أعمال الوطنيين بحيث يقلد كل منهم ما هو أهل له فيجوده ويحصر حركته في هذا العمل ولا يتجاوزه إلى غيره . وإذا تأمل القارىء في عقلية أفلاطون الاجتماعية وجدها داخلية في علم النفس ، وفي علم الاخلاق ، فهو يذكر الاحوال لا على ما تكون عليه في الغالب ، بل على ما يجب أن تكون عليه .

فالأساس عند أفلاطون هو أدبي محض ، وهو قائم بتطبيق وظائف الاجتماع على القابليات الطبيعية في البشر حتى يأتي العمل أجود ما يمكن . إلا أن أفلاطون يعتقد بأنه لا بد من اختلال النظام شيئاً فشيئاً وعند ذلك فلا مفر من التردى ؛ ويدخل أفلاطون حينئذ في شرح كيفية الانحطاط وما ينشأ عن فساد النظام من فساد الاخلاق مما لا يلزم أن نستوفيه هنا ، لأننا لم نقصد إلا إجمالاً . وإنما نذكر شيئاً ذا بال من فلسفته الاجتماعية وهو ذهابه إلى أفضل حاجر المدنية عن التردى ، وأحسن وسيلة لانتظام جهود المصالح ، إنما هو تسليم زمام أمورها إلى الحكماء ، وهو على حد ما قال بعضهم : لا تباع المدنية السعادة إلا إذا كان الفيلسوف ملكاً ، أو الملك فيلسوفاً . ومن رأى أفلاطون أن كل صفة بشرية قابلة للتغيير بحسب البيئات والطواريء

وإن السياسة بنوع خاص لا تنضبط تحت قواعد يجب العمل بها في كل زمان ومكان . ويترب على رأى أفلاطون هذا أن رجل الدولة يكون أحياناً فوق القواعد والاضاع .

وأما أرسطو فعنده تفسرة المدنية أنها مجمع منازل وعائلات تتوخى في معيشتها السعادة والاستقلال . وهو يخالف أفلاطون في حصره المدنية بتوزيع الأعمال ومجرد المبادلة ، ويقول : إن الاجتماع لم يكن للحياة المجردة ، بل للحياة المرفهة ، وإن علم السياسة هو العلم الباحث عن الأسباب والشروط الكافية للوصول إلى هذه الغاية وهو يأتي بمباحث تاريخية عن كيفية تولد المدن والمدنيتات . ومن رأيه أن الاستقلال الزراعى هو شرط في صحة الأخلاق ، وأنه كلما استقلت مملكة عن غيرها في احتياجاتها المعاشية استقلت في أمورها السياسية والعكس بالعكس ، وكلما أكثر أخذ المملكة وعطاؤها مع الخارج ضعف استقلالها السياسى وتعرضت للحروب ، وهى حقيقة قد انطبخت حتى احترقت ، وقضية قد ابتقرت حتى انفقت . فالأمة التى ليس لها استقلال اقتصادى هيئات أن يتم لها استقلال سياسى .

ومما يذهب إليه أرسطو أن الرق أمر طبيعى لا ينبغي التعجب منه ، وأن الطبيعة فى قسمتها البشر إلى طبقتين سادة وأرقاء ليست ظالمة ولا مستبدة . قال أرسطو : وإنه يوجد فى آسيا فى الأقاليم الحارة أقوام ذوو ذكاء وسرعة خاطر ، لكنهم مجردون من العزم ، لذلك هم مخلوقون ليكونوا أرقاء ! وقال : إن مناخ يونان المعتدل هو المناخ الوحيد الذى يمكنه أن يولد سلائل جامعة بين الذكاء والعزم ، فالليونانيون أحرار بحسب الفطرة قبل التربية .

ولقد بالغ أرسطو فى ذلك أشد المبالغة ورأى الناس فى رأيه هذا مجرد تسويق وتصويب لفتوحات صاحبه الاسكندر فى الشرق .

أما اعتدال أمزجة اليونانيين باعتدال اقليم يونان فلا نزاع فيه ، ولهذا أكثر فيهم الحكماء ، وغلبت عليهم العلوم ، وهذا شبيه بما يقوله ابن خلدون عن تأثير اختلاف الأقاليم وهو :

في الأقاليم الرابع أعدل العمران ، والذي حفاقيه من الثالث والخامس أقرب للاعتدال ، والذي يليهما الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال ، والأول والسابع أبعد بكثير . فلهذا كانت العلوم والصناعات والمباني والملابس والاقوات والفواكه ، بل والحيوانات وجميع مايتكون في هذه الأقاليم الثلاثة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً ، حتى النباتات فانما توجد في الأكثر فيها . ولما نقف على خبر بعثة في الأقاليم الباردة الشمالية ولا الجنوبية التي فيها الحر الزائد ، وذلك لأن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وخلقهم « اه هذا وأن أرسطو يرى للأسرة غاية أبعد وأسمى من الغاية الاقتصادية ، وهي أنه لا بد لكل عائلة من رأس ، وأن هذا الرأس هو الرجل الذي يدبر النفوس القاصرة أي نفوس النساء والأولاد . ومعنى النفوس القاصرة ليس أنها نفوس أرقاء ، بل معناه أنها نفوس ضعاف محتاجة إلى المعاونة . ولهذا كانت سلطة رئيس العائلة غير مطلقة على المرأة ، بل كان حكمه عليها حكم الوالى على رعيته ، وفي العائلة متوافرة جميع الشروط اللازمة لتأليف المدنية .

ثم إن أرسطو لا يمد في الوطنيين الأحرار طبقة الصناع والأكرّة ، بل يقول إن أعمال هؤلاء خسيصة وليس عندهم من الوقت متسع لممارسة الفضيلة ، وللاشتغال بسياسة المجتمع . وهذا القول مردود من جهة شقه الأول ، وهو ممارسة الفضيلة التي تكون عند الصناع والزراع كما تكون عند غيرهم . ولكنه مقبول من جهة شقه الثاني وهو الاشتغال بسياسة المجتمع ، فان هذه الطبقات قلما تشتغل بها .

وتعريف أرسطو للديموقراطية هو هذا : إنها توجد حيث يكون الرجال الأحرار الفقراء هم القابضين على أزمة الأمور ، وإنها حيث توجد توأمين الحرية والمساواة . قال : وعكسها حكم الأصلاء والأغنياء . وقال : إن الفروق الكبيرة في الثروة تؤدي إلى الحكم المطلق المنحصر في بعض البيوتات ، وأن الغاية المقصودة من بناء المدنية هي تأمين سعادة السكان وتمكينهم من ممارسة الفضائل ، والتحلّي بمكارم الاخلاق وذلك لا يكون إلا بخضوع الجميع للقوانين . وهذه القوانين لا تنفذ جيداً إلا ببعض

شروط اقتصادية لامناص منها مما يعود بترفيه الطبقات الوسطى التي لا تقدر أن تعيش إلا من كسب أيديها . فهي بطبيعة الحال تحافظ على حسن سير القوانين ، ولا تقصد الاجتماعات الشعبية إلا عند الضرورة . أما إذا وجد في المجتمع من يستغنى عن العمل ومن يعيش من رأس مال راتب لديه ، فإن الديمقراطية تضعف في مجتمع كهذا وتقوم حينئذ الأصوات والانتخابات مقام القوانين .

ولقد تكلم أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابي في مبادئ العمران أيضا وأجاد وأفاد ونقل كارادوثو أكثر نظرياته السديدة في المدنية . ولننقل هنا ما ذكره عنه القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد الاندلسي المتوفى بعد زمن الفارابي بقرن واحد قال : أبو نصر محمد بن محمد بن نصر الفارابي فيلسوف المسلمين بالحقيقة أخذ صناعة المنطق عن يوحنا بن جيلاني المتوفى بمدينة السلام في أيام المقتدر ، فبذ جميع أهل الاسلام فيها ، وأتى عليهم في التحقق بها ، فشرح غامضها ، وكشف سرها وقرب تناولها ، وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة ، لطيفة الاشارة ، منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل ، وانحاء التعليم وأوضح القول فيها عن مواد المنطق الخمس ، وأفاد وجود الانتفاع بها ، وعرف طرق استعمالها ، وكيف تصرف صورة القياس في كل مادة منها ، فجاءت كتبه في ذلك الغاية السكافية ، والنهائية الفاضلة . ثم له بعد هذا كتاب شريف في إحصاء العلوم^(١) والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ، ولا ذهب أحد مذهبه فيه ، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به وتقديم النظر فيه . وله كتاب في أغراض فلسفة أفلاطون وأرسطاطاليس^(٢) يشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة ، والتحقق بفنون الحكمة ، وهو أكبر عون على تعلم طريق النظر ، وتعرف وجه الطلب . اطلع فيه على أسرار العلوم وثمارها علماً علماً ؛ وبين كيفية التدرج من بعضها إلى بعض شيئاً شيئاً (إلى أن يقول) : ثم له بعد هذا في العلم الالهي والعلم المدني كتابان لا نظير لهما ، أحدهما المعروف « بالسياسة المدنية » والآخر المعروف « بالسيرة الفاضلة »^(٣) عرّف فيهما بجمل عظيمة من العلم الالهي

(١) وقد طبع في مصر حديثاً (٢) وهو مطبوع في مصر أيضا

(٣) وهو مطبوع تحت اسم آراء أهل المدينة الفاضلة

على مذهب ارسطاطاليس في مبادئ السنة الروحية ، وكيف تؤخذ عنها الجواهر
الجسمانية على ما هي عليه من النظام واتصال الحكمة ، وعرف فيها بمراتب الانسان
وقواه النفسانية ، وفرق بين الوحي والفلسفة ، ووصف أصناف المدن الفاضلة وغير الفاضلة
 واحتياج المدنية إلى السير الملوكية ، والنواميس النبوية . انتهى . ولكن ليس من هؤلاء
واحد لا أفلاطون ولا أرسطو ولا الفارابي يعدّ واضعاً لعلم فلسفة التاريخ الذي هو
حق وليّ الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون مفخرة المغرب بل مفخرة الاسلام كله .
ولقد كان محرر هذه السطور من أول ما بلغت سن الحلم ولوع خاص بمقدمة هذا
العبقري العظيم ، إلى أنى كنت أطلعها المرة بعد المرة ، وفي كل مرة أجد لها طلاوة
لا تمثّل وأكشف فيها أسراراً جديدة لم تكن انكشفت لي في الأول ، وأشرف منها
على آراء طريفة ، ومباحث لطيفة ، كنت أحاول عبثاً العثور عليها في غير هذه المقدمة
التي لا تخاق ديباجتها ولا تذهب بهجتها . وكأني استبرأت بطول الزمن الكتب
العربية المعروفة فكنت أرجع في النهاية إلى مقدمة ابن خلدون ، ولا أجد أمنيته
إلا فيها ، ولا أزال أستوري زناداً لا يلعب إلا من خلال ذلك الخاطر ، وأستسقي غيثاً
لا يمطره غير ذلك العارض ، ولم يكن إعجابي بما في كلام ابن خلدون من مبادئ
سامية ، وأقوال سديدة ، وأنظار فريدة ، يمزّ وجودها في كتب غيره من أساطين
الحكمة ؛ بأقل من إعجابي ببلاغة عبارته ، ورصانة أسلوبه ، وجلالة تقريره ، حتى
كأنه يخطب من فوق منبر ، ويصوّل في المواضيع صولة عضنفر ، فينزل بيانه من
نفوس الأدباء - الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه - المنزلة التي لا تعلوها منازل
الأقار ، في أعين السمار . فلو قرأ المتأدب مقدمة ابن خلدون متوخياً فيها مجرد الانطباع
على أسلوبها في الانشاء العربي دون أن ينظر إلى ما فيها من فلسفة عالية ، وتحقيقات
سنّية ، وعلوم جمّة ملخصة ، وحقائق ناصعة من أوضاع الوجود مستخلصة ، لكانت
مقدمة ابن خلدون تكفيه عمدة في فن الأدب ، وتغنيه عن غيرها من تفانس ما كتب
العرب ، ولعل عشقي أسلوب هذا الامام في كتابة التاريخ ، وغرامى بطريقته في
تعليل النوازل ، وتقرير طبائع العمران ، قد ترك أثراً في ملكتي بلغ من العمق أنه

قلما كان يفارقني في طرق التعبير عن أفكارى والافضاء بجلاجل نفسى ، وخوانس صدرى ، إلى أن إماماً مثل السيد رشيد رضا رحمه الله حكم في المنار منذ خمس عشرة سنة بأن أسلوب كاتب هذه الأسطر كثير الشبه بأسلوب ابن خلدون . أقول هذا وإن كان المشبه لا ينبغي أن يعطى جميع حكم المشبه به ، وكان مثلنا لا يجهل مكانه من ذلك المدى المتطاول . ولقد أولعت بهذه المقدمة شاباً وكهلاً وشيخاً ، وبقيت أنظر إليها نظرة المشتاق لا تخمد السنون من جذوة غرامى بمحاسنها ، ولكنى لم أكن مطالعاً من التاريخ الكبير إلا لمحات يسيره ، وربما طالعت من كامل ابن الأثير أكثر مما طالعت من تاريخ ابن خلدون بكثير ، فما زال يحز في صدرى أن أقرأ هذا التاريخ قراءة مدقق وأعقد آخره بأوله عقد مستوثق ، وعدوءاً الأشغال تمدو عن هذه الأمنية ، وتحول بينى وبين هذا الغرض المُلِحِّ ، والوجد المبرِّح ، إلى أن جاءنى في السنة الماضية من فاس المحروسة حاضرة المغرب أن السكتبى النبیه الساعى فى نشر العلم بما أوتي من جودة الفهم « الحاج محمد المهدي الحبابى » أخذ الله بيده ، عزم أن يطبع تاريخ ابن خلدون طبعة جديدة رائقة مستوفية شروط التنقيح مطرزة بالحواشى القيمة اللائقة بمثل ذلك التاريخ العظيم ، مستجيداً لهذا الغرض من أدباء شباب المغرب فرقدين بقصر الشيوخ القرَّح عن مداهما البعيد ، وتكاد فحول العلماء لا تحشر مهما فى صعيد ، أعني كلا من المحققين الكامنين ، والجهبذين الحافلين ، السيدين محمد علال الفاسى الفهرى ، وعبد العزيز بن ادريس زين الله بمثلهما مواسم الأدب وأمطر بغيث أقلامها مربع العربية اذا جدب ، فتلقيت من هذا الخبر بشرى أثلجت الصدر ، وصرت أترقب طلوع هذا الفجر يذاهب الصبر ، وبين أنا كذلك إذا بصاحب هذه الفكرة هو نفسه يريدنى أن أعلق أنا أيضا على هذا التاريخ حواشى بما يعنى لى من آراء وأبحاث متصلة بمواضيعه أخالف فيها المؤلف أو أواقفه . وأفارقة فى وجهة النظر أو أرافقه ، وأبدى من النظريات العصرية فى علم الاجتماع ماتم به فوائد هذا الكتاب وتتجلى حقائقه .

وقد صادف مجيء هذا الاقتراح أنى كنت من « الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية » في شغل شاغل عماسواها أكاد أنوءبها وحدها فضلا عن أن أتعداها فاعتذرت عن خوض هذا البحر المعجاج وقلت: من ذا الذى يجرى مع ابن خلدون إذا أقر أنملة على مهرق ، وقد خاب من يساجل البحر الخضم ، ومن يزحم البحر يفرق . فما زال بي إبرام الاخوان وإصرارهم ، وإيرادهم فى هذه الحاجة وإصدارهم حتى رضيت برغم ما أنا عليه من كثرة الشواغل أن أعلق بعض الحواشى على بعض المظان ، مجتزئاً من البحث بالمختصر المفيد ، ومكتفياً من القلادة بما أحاط بالجيد ، ولما كان قد ورد فى متن المؤلف ذكر الأمم الكبار ، ومن جملتها أمة الترك علق تحت هذه اللفظة خلاصة صافية فى نسب هذه الأمة وأولياتها ومصايرها ، ثم لما كان لا بد فى هذا النسب من الانتهاء إلى تاريخ بنى عثمان الذين تحملوا أعباء الخلافة الإسلامية ردها من الدهر ، دخلت فى هذا البحث وأنا على نية إجماله ما استطعت إلى الاجمال سبيلا ، فاذا بي مهما سلكت الطرق القاصدة لا أقدر أن أتخلص من هذا التاريخ إلا فى مجلد كبير ، وكيف لا يكون ذلك وهناك دولة طويلة عريضة كانت من أعظم دول الأرض ، وشجت عروقها ، وامتدت شماريخها ، من حدود المغرب الأقصى غربا إلى بحر الخزر شرقا ، ومن أواسط أفريقية جنوبا ، إلى المانيا وبولونيا شمالا ، فكانت أيامها ملأى بالحوادث الكبار ، شاغلة ما بين دفتى الليل والنهار ، ففضيت فيه متوكلا على الله من أول تأسيس هذه الدولة إلى بداية الحرب العالمية متوخياً فى الوصف الحد المتوسط ، متجانفا عن خطى المفرط والمفرط ، ولا أظن كتاباً قد وضع فى العربية عن الدولة العثمانية على غرار هذا الكتاب ، لاسيما فى العصر الحاضر . فأما القسم المتعلق من تاريخ هذه الدولة بالحرب الكبرى فقد أرجأته إلى فرصة أخرى ، ريثما أكون عرفت ما يجب أن أمسكه فى هذا الموضوع من المواد ، وأسلكه من الجواد ، والله أسأل العون والتيسير ، إنه تعالى من وراء السداد .